

الجهادُ ثمرةُ عزيمةِ الأمةِ

المهندس عدنان الرفاعي

الجهادُ ثمرةُ عزيمةِ الأمةِ ، وتجسيدُ على أرضِ الواقعِ لإرادتها الصادقةِ النابعةِ من إيمانها بحقِّها ، وانصياعُ لأمرِ اللهِ تعالى في الذودِ عن الحقِّ والمقدَّساتِ ..
فكلمةُ الجهادِ مُشتقةٌ من الجذرِ (ج ، هـ ، د) ، الذي تدورُ دلالتهُ ومعانيهُ ضمنَ إطارِ بذلِ الجهدِ وتحملِ العناءِ في ثباتِ الإنسانِ على الحقِّ ، وفي صِراعِهِ مع الآخرين لإعادةِ الحقِّ ، والحفاظِ عليه .. فالإنسانُ الذي يُجاهدُ يتعرَّضُ إلى هذا العناءِ .. (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) (لقمان : ١٥) ..

والجهادُ ليس متوقِّفاً على القتالِ ، فهناك الجهادُ بالمالِ ، وهناك الجهادُ بكلمةِ الحقِّ ، وهناك الجهادُ بالصبرِ وبإعدادِ العُدَّةِ لملاقاةِ العدوِّ ، وهناك الجهادُ بالتفكيرِ والتدبيرِ لمعرفةِ الحقيقةِ وإيصالها إلى الناسِ ..

.. وكلمةُ (الاجتهادِ) مُشتقةٌ - أيضاً - من الجذرِ (ج ، هـ ، د) ، فيه بذلُ الجهدِ والعناءُ في تدبُّرِ سننِ اللهِ تعالى الشرعيةِ ، وسننهِ الكونيةِ (نواميس الكونِ الماديةِ

(، هو جهادٌ ، حينما يكونُ في سبيلِ إدراكِ الحقائقِ والعملِ بها وتوظيفِها لِمصلحةِ الناسِ ..

وهكذا ... فكلُّ عملٍ يقومُ به الإنسانُ من أجلِ الحقِّ الذي يريدُهُ اللهُ تعالى هو جهادٌ ، وكلُّ من ابتغى الحقَّ الذي يريدُهُ اللهُ تعالى فقد سارَ في دربِ الجهادِ ، وسيهدِيهِ اللهُ تعالى سبيلَ هذا الحقِّ إن كان مُخلصاً في طلبه لهذا الحقِّ ..

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت

: ٦٩)

والإنسانُ الذي وُجدَ في هذه الدنيا لِيُمتَحَنَ ، يُعدُّ جهادهُ (بالمعنى الواسع للجهاد

(جوهرَ امتحانه في هذه الدنيا ..

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) (التوبة : ١٦)

(وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَبَلِّغُوا أَخْبَارَكُمْ) (محمد

: ٣١)

ولذلك فجهادُ الإنسانِ يُعدُّ إطاراً لإيمانه بالله واليومِ الآخرِ وهروبه من ساحةِ

الجهادِ (بالمعنى الواسع للجهاد) يُدخلُهُ في ظلماتِ الكُفْرِ بالله واليومِ الآخرِ ..

(لَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ

قُلُوبُهُمْ فَبِهِمْ فِيهِمْ يُرَدُّونَ) (التوبة : ٤٤ - ٤٥) ..

فهناك توافقٌ تامٌ بين تقوى الإنسانِ لله تعالى ، وبين جهاده في سبيله جلَّ وعلا ..

هذا التوافقُ نراه عبرَ تماثلِ صياغةِ العبارتين القرآنيتين التاليتين ..

(انقوا لله حقَّ تقَاتِهِ) (آل عمران : ١٠٢)

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) (الحج : ٧٨)

فكما أن حقّ التقوى لله تعالى (اتقوا الله حقّ تقّاته) ، يكون بكامل استطاعة الإنسان .. (فاتقوا الله ما استطعتم) (التغابن : ١٦) ، كذلك فإن حقّ الجهاد في سبيل الله تعالى

يكون بكامل استطاعة الإنسان (وجاهدوا في الله حقّ جهاده) ..

وحقّ ندرك حقيقة الجهاد وأهميته وجدواه ، لا بدّ من أن ندرك جوانب الجهد مادّ المختلفة ، وأهمية كلّ جانب منها كمقدمة للجوانب الأخرى ... علينا أن ندرك أن الجهاد الثقافي والفكري والإعلامي هو المقدمة الأولى للجهاد بمعناه الشمولي ، فإن لم تتوحد الأمة على معيار ثقافي وفكري هدفه الحقّ ، واحترام الرأي الآخر وعدم تقزيمه ، وفق معيار دلالات قوله تعالى .. (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (البقرة : ٢٥٦) ، فإن أي محاولة للنهوض بالأمة فكراً وحضارة ستنتهي إلى الفشل ، نتيجة تشرذم فكر أبنائها وثقافتهم ، وإن أي قوة تملكها الأمة ستوظف في سبيل تمريرها بدلاً من أن توظف لنهضتها ولقتال أعدائها ..

وهذا الجهاد الفكري والثقافي والإعلامي يجب أن يترافق مع جهاد علمي وتكنولوجي وحضاري للنهوض بقيمة الأمة ، كي تحتل مكاناً شريفاً لها تحت الشمس ، وكي تنتج الحضارة ، فتعيشها وتصدرها ، بدلاً من أن تستجدي مقوماتها من الآخرين دون أن تشارك في صناعتها ..

.. هذه الجوانب المختلفة للجهاد (في الفكر والثقافة والعلم والتكنولوجيا) ، هي المقدمة السليمة لجدوى الجهاد القتالي الذي تستخدمه الأمة للدفاع المباشر عن مقدّساتها وكرامة أبنائها ..

فأي نصر تبغيه الأمة حينما يحتاج تحقيقه إلى امتلاك سلاح لا يصنعه إلا أعداؤها ؟ !!! .. وأي مشاركة حضارية وأي موقع تحت الشمس تبغيه الأمة ، حينما تستورد من الآخرين كلّ شيء ، وحينما لا تنتج ما يأكل أبنائها ، وما يلبسون وما يتداوون به وما يركبون وما يحتاجون من سلاح للدفاع عن كرامتهم ومقدّساتهم و ؟ !!! ..

وحيثما لا تستطيع استخراج ثرواتها الطبيعية التي جعلها الله تعالى في أرضها إلا عن طريق الآخرين ؟ !!! ..

وأي نصر تبغيه الأمة حينما تتمزق مذاهب ، يتناحر أبنائها لإثبات عصبية هذه المذاهب على حساب مصلحة الأمة ومستقبلها ومقدراتها ؟ !!! ..

من هنا تظهر بشكل جلي أهمية الجهاد الفكري والثقافي والعلمي والحضاري كمقدمة سليمة لجدوى الجهاد القتالي .. وبالتالي أهمية الجهاد في حالة السلم (وأعدوا

لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) (الأنفال : ٦٠) ، كخطوة أولى لبناء أمة تفعل ما تقول وتفعل ما تقول ..

ففي هذه الآية الكريمة نرى أن القوة التي يأمرنا الله تعالى بإعدادها (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) تأتي في هذه الصورة القرآنية بصيغة النكرة (من قوة) ،

لتشمل كل أشكال القوة من الثقافة والفكر إلى تكنولوجيا الصناعة .. وأمتنا العربية والإسلامية تقع عليها مسؤولية الجهاد (بمعناه الشمولي) أكثر من كل الأمم ، كونها مكلفة بإيصال رسالة الحق إلى كل الأمم ، وكون بعض مقدساتها وأراضيها مدنسة بالاحتلال ، وكونها متخلفة عن الكثير من الأمم الأخرى ، علمياً وتكنولوجياً ، وكون بعض موارثها الفكرية تحمل الكثير من حيثيات التمزق المذهبي ..

ولذلك فإن الجهاد (بمعناه الشمولي) يوضع مع حب الله تعالى ورسوله ﷺ في ساحة واحدة تناقض ساحة حب الدنيا والإعراض عن سبيل الله تعالى ..

(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتوها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد

فِي سَبِيلِهِ قَاتِبُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة : ٢٤) ..

ويدعو الله تعالى المؤمنين إلى الجهاد ، مبيّناً لهم أنه جلّ وعلا سيعذبهم ويستبدلهم إن هم تناقلوا إلى الأرض في مسألة الجهاد ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ افِرُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِذَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)) (التوبة : ٣٨ - ٣٩) ..

وما يجري في فلسطين المحتلة من تدنيس للمقدسات ، وسفك لدماء أبناء هذه الأمة ، يضعنا أمام مسؤولية جهادية عظيمة ، سندفع ثمنها غالباً في الدنيا والآخرة ، إن تقاعسنا في واجبنا الجهادي تجاه أرضنا ومقدساتنا وأهلنا ..

فما نراه من فشل في تقديم الأمة للحد الأدنى من الجهاد القتالي دعماً لأهلنا في الداخل ، هو نتيجة طبيعية لفشلنا - كأمة - في الجهاد الفكري والثقافي والعلمي والتكنولوجي .. فالمعركة التي تفرض علينا الآن ، أعد لها العدو منذ قرون ، على مختلف الصعد ، من الثقافة إلى التكنولوجيا .. وبالتالي فانتصار الأمة في معركتها هذه ، يعني انتصارها فكرياً وعلمياً وحضارياً ، وفشلها يعني فشلها فكرياً وعلمياً وحضارياً .. فمعركتنا هذه معركة وجود ، لا معركة حدود ، لأن العدو لا يكتفي باحتلال أرضنا وقتل شعبنا ، إنما يريد إلغاء هوية الأمة وتاريخها ، والقضاء على عقيدتها وثقافتها .. فالشلل العربي والإسلامي في فعل شيء لأهلنا ومقدساتنا في فلسطين المحتلة على الصعيد القتالي ، يكشف فشلنا الفكري والحضاري والعلمي .. فهناك فارق كبير بين أقوالنا في الجهاد وعواطفنا الجياشة وتنظيرنا من جهة ، وبين عملنا واستعدادنا الحقيقي لهذا الجهاد من جهة أخرى .. فلا يوجد أي برنامج عملي للتحرير مُعتمد عند الأمة ..

ومَّا يُعْطِي مَسْئُولِيَاتِنَا الْجِهَادِيَّةَ أَهْمِيَّةً كَبِيرَةً ، أَنَّنَا أُبْتَلِينَا بَعْدَ عُنْصُرِيٍّ يُعْطِي عُنْصُرِيَّتَهُ لُونًا مُقَدَّسًا ، وَيَصِفُ احْتِلَالَ أَرْضِنَا وَقَتْلَ شَعْبِنَا تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَانْصِبَاعًا لِأَمْرِهِ جَلَّ وَعَلَا ..

فَلَا يُمْكِنُ الْفَصْلُ بَيْنَ تَعَالِيمِ الْيَهُودِ الَّتِي كَتَبُوهَا بِأَيْدِيهِمْ وَنَسَبُوهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَبَيْنَ الْمَمَارَسَاتِ الْإِجْرَامِيَّةِ لِلصَّهْيُونِيَّةِ ، الَّتِي نَرَاهَا بِأَمِّ أَعْيُنِنَا .. فَالصَّهْيُونِيَّةُ هِيَ الْوَجْهُ السِّيَاسِيُّ الَّذِي يَتَرَجَّمُ التَّعَالِيمَ الْيَهُودِيَّةَ عَلَى أَرْضِ الْوَقْعِ ..

إِنَّ الْيَهُودِيَّ صَّهْيُونِيًّا بِمَقْدَارٍ مَا يُنْفَذُ مِنَ التَّعَالِيمِ الْعُنْصُرِيَّةِ الْإِجْرَامِيَّةِ لِلْيَهُودِيَّةِ .. وَالصَّهْيُونِيُّ يَهُودِيٌّ بِمَقْدَارٍ مَا يُعْتَقَدُ بِهَذِهِ التَّعَالِيمِ ..

فَالْيَهُودِيَّةُ (كَفِكْرٍ وَكُنُصُوصٍ مَنْسُوبَةٍ إِلَى السَّمَاءِ) ، وَالصَّهْيُونِيَّةُ ، وَجِهَانِ الْعُنْصُرِيَّةِ وَاحِدَةٌ ، هِيَ مَعَادَاةُ الْقِيَمِ وَالْمَبَادِئِ ، وَنَشْرُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ مَحَارَبَةَ الْيَهُودِيَّةِ - كَفِكْرٍ - وَالصَّهْيُونِيَّةِ - كَسِيَاسَةِ وَكِكْيَانٍ مُعْتَصَبٍ - هِيَ مَسْئُولِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُصْلِحِينَ فِي الْأَرْضِ مَهْمَا كَانَتْ دِيَانَاتُهُمْ وَقَوْمِيَّاتُهُمْ ، لِأَنَّ الصَّهْيُونِيَّةَ خَطَرٌ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ صَالِحٌ وَنَافِعٌ فِي الْأَرْضِ ..

أَلَيْسَ مَا نَرَاهُ مِنْ قَتْلِ لِأَهْلِنَا فِي فِلَسْطِينَ الْمُحْتَلَّةِ وَمِنْ تَشْرِيدِ لَشَعْبِهَا ، هُوَ تَرْجُمَةٌ حَرْفِيَّةٌ عَلَى أَرْضِ الْوَقْعِ لِلنَّصِّ التَّالِيِّ مِنْ سَفَرِ الْعَدَدِ (٥٣ - ٥٤) :

[وَإِنْ لَمْ تَطْرُدُوا سَكَانَ الْأَرْضِ مِنْ أَمَامِكُمْ ، يَكُنِ الَّذِينَ تَسْتَبِقُونَ مِنْهُمْ أَشْوَاكًا فِي أَعْيُنِكُمْ ، وَمَنَاخِسَ فِي جَوَانِبِكُمْ ، وَيَضَاقُونَكُمْ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ سَاكِنُونَ فِيهَا ..]

أَلَيْسَ مَا نَرَاهُ مِنْ تَدْمِيرِ لِمَقَدَّرَاتِ أَهْلِنَا فِي فِلَسْطِينَ الْمُحْتَلَّةِ ، هُوَ تَرْجُمَةٌ حَرْفِيَّةٌ عَلَى أَرْضِ الْوَقْعِ لِلنَّصِّ التَّالِيِّ :

[وَانْطَلَقَ شَمَشُونَ وَاصْطَادَ ثَلَاثِمِائَةَ ثَعْلَبٍ ، ثُمَّ أَخَذَ مَشَاعِلَ وَرَبَطَ كُلَّ اثْنَيْنِ مِنْ بَنَاتِ آوَى الْوَاحِدِ إِلَى الْآخَرِ ، وَثَبَّتَ بَيْنَهُمَا هَذِهِ الْمَشَاعِلَ ، ثُمَّ أَوْقَدَ هَذِهِ الْمَشَاعِلَ ، وَأَطْلَقَهَا فِي زَرْعِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ ، فَاحْتَرَقَتِ الْأَكْدَاسُ مِنَ الْخِصَادِ وَسَائِرِ الزَّرْعِ ، حَتَّى الزَّيْتُونَ] (الْقِصَاةُ : ١٥ : ١ - ٦) ..

كيف يمكن لأي أمة من أمم الأرض أن تتعايش مع بشرٍ يعتبرون النصّ التالي مقدّساً من السماء :

[احترز من أن تقطع عهداً من سكّان الأرض وتأخذ من بناتهم لبنيك] (

سفر الخروج ٣٤ : ١٥ - ١٦) ..

وقد بين لنا القرآن الكريم أنّهم لا ينصاعون لأيّ عهدٍ يقطعونه على أنفسهم ..

(**أَوْكَلْنَا عَاهِدُوا عَهْدًا بَدَّه فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْرَهُمُ لَا يُؤْمِنُونَ**) (البقرة : ١٠٠) ..

والمسؤولية الكبرى والمباشرة - في محاربة هذا الكيان الغاصب - تقع على عاتق العرب والمسلمين ، كون الصهاينة يحتلون أرضاً عربية ، ويدنسون المقدّسات الإسلامية والمسيحية ..

إنّ ما يجري في فلسطين العربية منذ أكثر من نصف قرنٍ مؤرّخ في كتاب الله تعالى

، إفساد بني إسرائيل الذي نراه بأّم أعيننا ، هو الإفساد الثاني المعني بقوله تعالى .. (

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ

.....) (الإسراء : ٤ - ٧) .. وبالتالي فإفسادهم سيّشل الأرض

كافة ، ولن تنجو أمة من تبعات هذا الإفساد ..

.. وهكذا .. فإن حشد الهمم والطاقات لمواجهة هذا العدو ابتداءً من الفرد

وانتهاءً بالأمة ، وما يقتضيه ذلك من رص الصفوف عبر الوحدة الكاملة - فكراً

وعملاً - لجميع أفراد هذه الأمة ، مهما كانت دياناتهم ومذاهبهم واتجاهاتهم

الفكرية ... هذا الحشد هو ضرورة دينية إسلامية ومسيحية ، لأن اليهود يسيؤون إلى

الديانتين كقيم ومقدّسات .. وضرورة قومية لأن المشروع الصهيوني يهدف - من

جملة ما يهدف إليه - إلى منع وحدة هذه الأمة .. وضرورة إنسانية وأخلاقية ، لأنّ

الصهيانية ينشرون الفساد في كل الأرض ، ويرمون بذور الفتنة الطائفية والإقليمية ، لتمزيق الأمم ، ولإشعال الفتنة والحروب فيما بينها ..

ولو نظرنا إلى صمت الكثيرين ممن يُحسبون على هذه الأمة ، تجاه ما يجري الآن من جرائم يقوم بها العدو في الأرض المقدسة ، من قتل وتشريد لأهلنا ، ومن تدنيس لمقدساتنا فسرى في النص القرآني التالي صورة هذا الصمت ، وصورة تولي الكثيرين ممن يُحسبون على هذه الأمة ، وصورة البديل والنقيض لهذا الصمت والتولي ..

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلَفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ نَعْنِيَّ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعُثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْيَانِ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ (المجادلة : ١٤ - ٢٢) ..

ومَّا يَضَعُ مَسْئُولِيَاتِنَا الْجِهَادِيَّةَ فِي أَسْمَى دَرَجَاتِ الْفَرِيضَةِ ، وَقَوْعُ مَسْرَى الرَّسُولِ ﷺ تَحْتَ الْإِحْتِلَالِ ، وَمَحَاوَلَاتُ الْعَدُوِّ فِي هَدْمِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَبِنَاءِ الْهَيْكَلِ مَكَانَهُ .. فِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى قَدْرُهُ أَنْ يَكُونَ سَاحَةَ امْتِحَانِ أَفْرَادِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، لِيَشْهَدَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ يَتَّبِعُ مِنْهَجَهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبِيهِ .. هَذَا الْقَدْرُ نَرَاهُ بِشَكْلِ جَلِيٍّ عَبَّرَ الدَّلَالَاتِ الْمُنْتَحِرَّةِ مِنْ إِطَارِ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ النَّالِي ..

(وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ

عَلَى عَقْبِيهِ) (البقرة : ١٤٣) ..

فِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى (الْقِبْلَةُ الْأُولَى) كَانَ مَعْيَارًا لِامْتِحَانِ أَفْرَادِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ حِينَمَا حُوِّلَتْ مِنْهُ الْقِبْلَةُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، لِيَشْهَدَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﷺ ، مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبِيهِ ... وَهُوَ الْآنَ مَعْيَارٌ لِامْتِحَانِ هَذَا الْجِيلِ لِيَشْهَدَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ يَتَّبِعُ مِنْهَجَهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَذَلِكَ بِالِدِّفَاعِ عَنْهُ وَتَحْرِيرِهِ وَتَطْهِيرِهِ مِنَ الْإِحْتِلَالِ ، مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبِيهِ بِالتَّوَلَّى عَنْ وَاجِبِ الْجِهَادِيَّ ..

.. وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى الَّذِي حُوِّلَتْ مِنْهُ قِبْلَةُ الصَّلَاةِ فِي بَدَايَةِ الدَّعْوَةِ ، سَيَكُونُ تَحْرِيرُهُ مَعْيَارَ قِبْلَةِ الْفِكْرِ ، وَمَعْيَارَ أَهْلِيَّةِ حَمَلِ لَوَاءِ مَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبِالتَّالِي سَيَتِمُّ الْاسْتِبْدَالُ الْفِكْرِيُّ الَّذِي بَيْنَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ سُورَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ - عَلَى مَعْيَارِ الْجِهَادِ لِإِعَادَةِ الْمَقْدَسَاتِ ..

(هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ

فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا

يَكُونُوا أُمَّالِكُمْ) (محمد : ٣٨) ..

فِالتَّوَلَّى عَنْ الْوَاجِبِ الْجِهَادِيَّ (بِمَعْنَاهُ الشُّمُولِي) (وَإِنْ تَوَلَّوْا) نَتِيجَتُهُ

الْاسْتِبْدَالُ (يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّالِكُمْ) .. وَبِالتَّالِي فَفَشَلْنَا الْجِهَادِيَّ يَعْنِي

نهایتنا كأمة لها كيانها بين الأمم ، وهذا نتيجة طبيعيةً توازي علاقة الجهاد القتالي كنتيجة ، بالجهاد الفكري والثقافي والعلمي والتكنولوجي والحضاري كمقدمة ..
.. ولذلك فالجهاد في سبيل تحرير الأرض والمقدسات ، هو ثمرة الجهاد في سبيل تحرير الإنسان وفكره ، وفي سبيل إخراجِه من دياجير الظلام إلى نورِ الله مدي وسمو الحضارة ..

فالمعركة التي تبدأ قبل القتال من إعداد للعدة ومن ثم موضع حضاري وعلمي واقتصادي وفكري ، هي ذاتها المعركة التي لا تنتهي حين انتهاء القتال ، لأنها تحت ما ج إلى الاستمرار في الجهاد الفكري والتكنولوجي والعلمي .. والفشل في الاله تتعداد للمعركة قبل أن يبدأ القتال ، هو ذاته الفشل في الاستمرار الجهادي بعد انتهاء القتال ..

وقد بين الله تعالى هذا الناموس الكوني في كتابه الكريم ..

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحديد : ٢٥) ..

إن ورود العبارة القرآنية (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) ، في قلب هذه الآية الكريمة ليس عبثاً ..

.. فحملُ منهجِ الله تعالى والسيرُ فيه وإيصالُه إلى البشرية لإقامة حضارة العدل والحق (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) ، يحتاج إلى امتلاكِ قوّةِ العلمِ والتكنولوجيا (وما يترتبُ على ذلك من ثقافة وفكر) ، فتلك الحضارة تتركزُ على التصنيعِ وعلمِ المعادن (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) ، وحين ذلك يستطيعُ من امتلاكِ حضارة العلم والفكر أن ينصرَ منهجَ الله تعالى

، وأن يكون مستحقاً لخلافة الله تعالى في الأرض ، إن هو دفع هذه الحضارة وفق منهج الله تعالى الشرعي (وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) .. وفي قصة ذي القرنين أكبر برهان على ذلك ..

(قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوحَ وَمَا جُوحٌ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) أَتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا) (الكهف : ٩٤ - ٩٦) ..

فذو القرنين حينما أراد مساعدة المستضعفين والوقوف في وجه المفسدين ، لم يقل يكفيننا الدعاء عليهم ، إنما قال (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ) ، وقال (أَتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ) .. وفي ذلك بيان إلهي بأن مقومات النصر تبدأ بالجهاد العلمي والعملية ، وبالتمسك بالملء ممنون الذين يرجون نصر الله تعالى في جهادهم يأخذون بهذه السنة التي يبينها الله تعالى في كتابه الكريم ..

ولذلك تفهم دلالات الصورة القرآنية التالية وفق هذا النموذج ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نُنصِرُكُمْ وَاللَّهُ يَنْصِرُكُمْ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ) (محمد : ٧) ..

فالمؤمنون ينصرون الله تعالى حينما يقيمون منهجه الشرعي ويتفاعلون مع نواحيه الكونية على حد سواء ، حين ذلك ينصرهم الله تعالى ، لأنهم يستحقون - حين ذلك - شرف خلافة الله تعالى في الأرض .. (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ..) (البقرة : ٣٠) ..

فالذي لم يأخذ بنواميس الله تعالى الكونية عبر سبيل العلم ، إضافة إلى إقامة نواميس الله تعالى الشرعية ، لن ينال نصر الله تعالى .. وبالتالي ليس بالمؤمن المعني بقول الله تعالى : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (الروم : ٤٧) ..

إن الآلام التي تعيشها الأمة العربية والإسلامية على حد سواء ، هي نتيجة طبيعية لإعراضنا - منذ زمن طويل - عن سبيل الجهاد الفكري والعلمي والتكنولوجيا ، وبالتالي عن تحقيق نتيجة في جانب الجهاد القتالي ، مما أتاح للمفسد مدين في الأرض أن يدنسوا مقدساتنا ويقتلوا أبناءنا ..

فإفساد بني إسرائيل الذي نراه في أرضنا خاصة وفي الأرض عامة (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدوا في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً) (الإسراء : ٤) ، هو دون أدنى شك العلامة الأولى لاقتراب الساعة ، فقوله تعالى الذي يبين لنا فيه ما كتبه لبني إسرائيل في كتابهم (فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلو المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علواً تبيراً) (الإسراء : ٧) ، وقوله تعالى (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لنيفاً) (الإسراء : ١٠٤) ، يبين الله تعالى فيهما أننا نعيش زمن وعد الآخرة ، فالعبارة القرآنية (وعد الآخرة) لم ترد في كتاب الله تعالى إلا في هاتين الصورتين القرآنتين .. وحينما يقول الله تعالى (وعد الآخرة) فإنه يعني من جملة ما يعنيه له وعد مد اقتراب الساعة ، فكلمة الآخرة تقابل في كتاب الله تعالى كلمة الدنيا ، حيث ترد كل منهما (١١٥) مرة ..

فهذا هو أكبر امتحان لهذه الأمة ، إما أن تكون أو لا تكون .. ف إذا لم تكن في مستوى المسؤولية الجهادية (بمعناها الشمولي) ستُسْتَبَدَلُ بمن يرفع راية منهج الحق ، فلا يبخل في بذل نفسه وماله مجاهداً لا يخاف لومة لائم ..

(هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفُوقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يُبْخَلُ وَمَنْ يُبْخَلُ فَإِنَّمَا يُبْخَلُ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (محمد : ٣٨) ..

والله تعالى وليّ التوفيق

المهندس عدنان الرفاعي